مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10 / العدد: 2 (2022)، ص : 42- 61

اللهجات العربية القديمة (النشأة والتطوّر)

Ancient Arabic dialects (the origin and development).

سهام مادن[1]

[1] جامعة الجزائر1، كلية العلوم لإسلامية (الجزائر)،

madenesihem@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/05/26 تاريخ القبول: 2022/05/ 26 تاريخ النشر: 2022/06/01

ملخص:

من الضروري تحديد أهمّ أسباب نشأة اللهجات العربيّة القديمة لأنّها وسيلة أساسية لفهم اللغة العربيّة الفصحى بحيث تعتبر امتدادا لها.

كلمات مفتاحية: اللهجات العربية القديمة، النشأة، التطور.

Abstract:

The ancient Arabic dialects are the main and primordial source for defining the characteristics of the standard Arabic language.

Keywords: Ancient Arabic dialects; the origin; the development.

المؤلف المرسل: مادن سهام

1. مقدمة:

ليست اللغة العربيّة بدعا من اللغات في نشأتها وتطّورها، فقد كان العرب قبائل متعدّدة موزعة في شتى أنحاء الجزيرة العربيّة الواسعة التي تشتمل على بيئات كثيرة يلتقي البعض فيها ويفترق البعض الآخر عن بعض بعوامل جغرافية وحضارية ممّا أدّى إلى تعدّد لهجاتهم وتنوّع ألوان حياتهم، ولما نزل القرآن الكريم عمل على توحيد هذه الأمّة العربيّة وعلى توحيد لسانها.

وللإشارة فإنّ دراسة اللهجات العربيّة القديمة لم تحظ بما حظيت به اللهجات الحديثة، ويرجع سبب ذلك إلى صعوبة البحث في هذا المجال، سنحاول في هذا البحث تعريف اللهجة لغة واصطلاحا وتحديد أسباب نشأة اللهجات معتمدين على المنهج الوصفي التحليلي وذلك بالتركيز على أهمّ هذه الأسباب.

2. تحديد مفهوم اللهجة لغة واصطلاحا:

أ.اللهجة لغة: "ورد اشتقاقها بوجهين:

الوجه الأول: أنها مأخوذة من لهج الفصيل يلهج أمه: إذا تناول ضلع أمه يمتصه، ولَهَج الفصيل بأمه يلهج إذا اعتاد رضاعها فهو فصيل لاهج.

الوجه الثاني: أنها مشتقة من لهج بالأمر لهجا ولَهْوَجَ وأَلْهَجَ يعني أُولع به واعتاده أو أُغرِى به فثابر عليه، واللَّهَج بالشيء: الوُلُوع به"(ابن جني، 1952م، ج1، ص33).

نلاحظ أن كلا من الوجهين مناسب لوجود العلاقة بين أصل الاشتقاق وطريقة النطق التي يتبعها الإنسان، فاللغة يتلقاها الإنسان عن ذويه ومخالطيه كالفصيل الذي يتناول اللبن من ضرع أمه فيمتصه؛ كما أنه حين يتعلم اللغة يتعلق بها كمن يتعلق بشيء معين ويُلع به. وهذا التعريف يتطابق وتعريف ابن منظور:

"لَهَجَ بالأمر لَهَجًا، ولَهْوَجَ، وأَلْهَجَ، كلاهما: أُولِع به واعتَدَهُ، وأَلْهَجْتُهُ به. ويقال: فلان مُلْهَج بهذا الأمر أي مُولَعٌ به..."(الجاحظ، د ت، ج1، ص 76)

ب. معناها: يعرّفها الدكتور إبراهيم أنيس قائلا: "اللهجة في الاصطلاح الحديث هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة.

وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تسير اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض"(إبراهيم أنيس، 1996، ص 16)

فاللهجة تأدية من التأديات اللغوية أو عادة أو طريقة أو عادة كلامية غالبا ما تكون صوتية، ومن أمثلة ذلك لهجات العرب القديمة كعنعنة قيس وتميم وهي قلب الهمزة المبدوء بها عينا، فيقولون في: أنك عنك، كما قال الدكتور عبد الغفار: "...ومن ذلك في لهجات العرب القديمة: العنعنة وهي قلب الهمزة المبدوء بها عينا، وهذه الصفة معروفة عند قيس وتميم يقولون في أنك عنك، وفي أذن عذن على حين أن بقية العرب ينطقون الهمزة دون تغيير في أوائل الكلمات".(هلال عبد الغفار حامد، 1998، ص27).

قلنا أن الاختلاف اللهجي يكون على مستوى الأصوات وضربنا مثالا بعنعنة قيس وتميم، ويكون في كذلك على مستوى بنية الكلمات كما قال الدكتور عبد الغفار.

"وقد تكون الطريقة متعلقة ببنية الكلمات ونسجها، فاسم المفعول إذا صيغ من الفعل الثلاثي الأجواف فإن عينه تعمل عند الحجازيين، سواء أكان واويا أو يائيا مثل: مقول ومدين ولكن التميميين يعلون الواوي ويتممون اليائي فيقولون: مبيوع ومديون، وعلى طريقة بني تميم تجرى اللهجات العامية في مصر وفي بعض جهات اليمن ونجد".(هلال عبد الغفار حامد، 1998، ص27)

كما نلمس الاستعمال اللغوي على مستوى المعاني، مصادر اللغة أوردت أمثلة عديدة في ذلك كما قال السيوطي: "ككلمة (وثب) فهي عند (حمير) بمعنى (جلس) وعند عرب الشمال بمعنى (قفز) و(السدفة) عند تميم (الظلمة) وعند قيس (الضوء)".(السيّوطي، د ت، ج1، ص 188-191)

غير أن الإختلاف الصوتي يؤدي الدور المهم في اختلاف اللهجات وتنوعها؛ والاختلاف الصوتي ترجع أسبابه إلى ما يلي:

1. اختلاف في مخرج بعض الأصوات اللغوية كالجيم، فإنها تنطق في اللغة العربية من وسط اللسان، وفي اللهجة المصرية تنطق من أقصاه مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى.

2. اختلاف في وضع أعضاء النطق مع بعض الأصوات كترقيق وتفخيمه عند البيئات المختلفة.

3. اختلاف في النغمة الموسيقية للكلام وذلك يختلف بين القبائل وحسب البيئات المختلفة.

وفيما يتعلق بمصطلح "اللهجة" فقد كان القدماء من علماء العربية يعبرون كما نسميه الآن باللهجة بكلمة "اللغة" حينًا و"باللحن" حينا آخر، ويظهر هذا جليا في المعاجم العربية القديمة، فيقولون مثلا: الصقر بالصاد وما الطيور الجارحة، وبالزاي لغة (بضم اللم وكسرها).(إبراهيم أنيس، 1996، ص16)

وكثيرا ما وجدنا سيبويه في عرضه لمسألة نحوية يقول هذه لغة تميم مثلا أو لغة خثعم، وفي هذا قال: "وذو صَباح بمنزلة ذات مرّة تقول: سير عليه صباح، أخبرنا بذلك يُونس عن العرب، إلى أنه جاء في لغةٍ لخَثْعَم مفارقا لذات وذاتِ ليلة. وأمّا الجيّدة العربية فأن تكون بمنزلتها."(سيبويه، الكتاب، 1996م، ج1،ص226).

2.أسباب نشأة اللهجات:

اللغة كائن حي اجتماعي يتغذّى من مختلف العوامل المحيطة به؛ واللغة تتطور وتنمو فهي تشبه الإنسان في نموه ومروره بمراحل مختلفة؛ ومما لا شك فيه أن اللغة منذ زمان بعيد تتفرع إلى لهجات، وهذا الذي يجرّنا إلى البحث في أسباب نشأة اللهجات.

لقد أجمع المختصون أن الأسباب متعددة يمكننا توضيحها في النقاط التالية:

أ. الأسباب الجغرافية: بدأنا بالأسباب الجغرافية من حيث أهميتها؛ إذ تُعدّ عاملا أساسيا وجوهريا في نشأة اللهجات، ونقصد بالأسباب الجغرافية اختلاف البيئة.

فالبيئة الجغرافية تختلف؛ فنجد الجبال والسهول والوديان، كما نجد الأراضي الزراعية الخصبة والقاحلة، واختلاف البيئة الجغرافية يؤدي إلى اختلاف اللغة وتفرّعها إلى لهجات، فمثلا توجد جماعة في مكان معين وأخرى في مكان آخر، مع مرور الزمن يؤدي ذلك إلى تشعب لغة الجماعة الأولى إلى لهجات، وتشعب لغة الجماعة الثانية إلى لهجات كما قال الدكتور إبراهيم أنيس: "ولو أمكن أن تتحد تلك الظروف لاتخذ الكلام طريقا واحدا في تطوره، وشكلا واحدا في تغيره، ولظلت البيئات المنعزلة ذات لهجة واحدة لا تتشعب إلى صفات متباينة، ولكن الواقع المشاهد أن البيئات متى انعزلت اتخذت أشكالا متغايرة في تطور لهجاته".(إبراهيم أنيس، 1996، ص22)

مما لا شك فيه أن جزيرة العرب وحدة جغرافية من حيث المناخ، وأنها من ناحية أخرى لا تفصلها موانع جغرافية كالجبال الشاهقة والأنهار الكبيرة التي تمنع الهجرات، وهذا الأمر ينطبق على كل الجزيرة العربية، وقد قال في هذا الصدد الدكتور عبده الراجحي: "فإذا كان أصحاب اللغة الواحدة يعيشون في بيئة جغرافية واسعة، تختلف الطبيعة فيها من مكان لمكان كأن توجد جبال أو وديان تفصل بقعة عن أخرى بحيث ينشأ عن ذلك انعزال مجموعة من الناس عن مجموعة، فإن ذلك يؤدي مع الزمن إلى وجود لهجة تختلف عن لهجة ثانية تنتمي إلى نفس اللغة.

والذين يعيشون في بيئة زراعية مستقرة يتكلمون لهجة غير التي يتكلمها الذين في بيئة صحراوية بادية".(الراجحي عبده، 1998، ص37)

فالأرض التي يعيش عليها البشر مختلفة، ومتى اختلفت العوامل الجغرافية اختلفت اللغة، باعتبار أن اللغة كائن حي ينمو ويتغذى من مختلف العوامل المحيطة به كما قال الدكتور عبد الغفار حامد هلال:

"متى اختلفت البيئة الجغرافية فإن ذلك يؤدي إلى اختلاف اللغة، فإذا انتشرت جماعة لغوية تعيش في مكان معين على أرض واسعة تختلف طبيعتها فإن ذلك يؤدي -مع تطاول الزمن- إلى انشعاب لغتها الواحدة إلى لهجات. وإذا كانت البيئة تؤثر على سكانها جسميا وخلقيا ونفسيا، كما هو الواقع فإنها –كذلك تؤثر على أعضاء النطق وطريقة الكلام"(حامد عبد الغفار هلال، 1998، ص33)، وقال فندريس: "...فإن اللهجة أولا وقبل كل شيء كيان لغوي."(فندريس، 1950م، ص33).

هذا فيما يتعلق بطبيعة البيئة الجغرافية من حيث مناخها وتضاريسها التي ساهمت بشكل فعّال في نشأة اللهجات كما قال الدكتور داود سلّوم: "أما الأسباب الجغرافية التي ساعدت على امتزاج اللهجات وتقاربها، والأخذ والعطاء، هي الحقيقة الجغرافية البسيطة. إن جزيرة العرب وحدة جغرافية من حيث المناخ، فكل القبائل تضطر للهجرة بين حين وآخر، يضاف إلى ذلك أن أرض الجزيرة لا تفصلها موانع جغرافية كالجبال الشاهقة والأنهار الكبيرة، مما يمنع الهجرة، أو يدعو إلى الاستقرار، وينطبق هذا على كل الجزيرة العربية ما عدا بعض مناطق اليمن حيث تمكنت بعض القبائل من العزلة الاجتماعية."(داود سلوم، 1986، ص10) ، وقالت في هذا المقام الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ:..."وكان للعوامل الإقليمية الخاصة أثرها في كل اللهجات الشعبية المحلية."(بنت الشاطئ عبد الرحمان، 1969، ص85).

وقد اهتم بهذا الموضوع المختصون على اختلافهم من لغويّين إلى مؤرخين، فحاولنا أن نجمع بينهم لنبيّن أن للبيئة الجغرافية دورا أساسيًا في نشأة اللهجات،

فهذا مثلا عمر فروخ يصف بلاد العرب قائلا: "سطح بلاد العرب شديد التفاوت: القسم الأعظم منه بادية (أرض تصلح للزراعة ولكن لا ماء فيها)، ويتخلّل البوادي واحات ينبت فيها الزرع والنخل. وفي الطرف الجنوبيّ الغربي من مستطيل شبه جزيرة العرب جبال يُسمّضى فرعُها الشماليّ "الحجاز" لأنه يحجزُ (يعترض) بين "تِهَامة" (الساحل المنخفض) وبين "نجد" (وهي هضبة واسعة في شمالي شبه الجزيرة). وفي الجنوب في عمان واليمن تعظم الجبال وتعلو...وإلى الشمال الشرقيّ من نجد -بين بادية الشام ونجد والحجاز -صحراء النُفود أو النُفوذ...والربع الخالي "الصحراءُ" (أرض رملية لا ينبت فيها شيء (ولو سُقيت بالماء)".(فروخ عمر، 1970م، ص36)

فنحن نلاحظ من خلال هذا القول تفاوتا في البنية الجغرافية لبلاد العرب، وهذا الاختلاف الجغرافي لا محالة أدّى إلى الاختلاف اللهجي، فهناك أراضٍ تنعم بالخصوبة ومنه العيش السهل حيث تفد عليها قبائل العرب من كل النواحي طلبا للعيش، وهناك أراضٍ قاحلة ينفر منها أصحابها لجفافها وعقم أراضيها؛ ولقد أثبتت الدراسات اللغوية أن اللغة تتماشى والبيئة الجغرافية، فالمناخ الصحراوي يؤدي إلى نشأة لهجة تمتاز بخشونة أصواتها وغرابة ألفاظها، وأحسن دليل على ذلك لغة العصر الجاهلي التي يمثلها الشعر أحسن تمثيل باعتباره ديوان العرب في العصر الجاهلي، وقد قال في هذا الصدد رشيد يوسف عطا الله.

إذا استقرينا الآثار الأدبية التي خلفتها الأمم السالفة رأينا أن الشعر أقدمها عهدا عند كلّ منها، سواءٌ ظلت الأمة في أول أطوار العمران أو بلغت أرقى درجات المدنية مما يدلنا أن كل شعب في بداوته أول ما يكون شاعرا وباكورة أثمار قريحته وأعماله العقلية لا تكون إلا المنظومات كالرامايانه والمهابهارتة عند الهنود والإلياذة والأودسية عند اليونان والإلياذة عند اللاتين والمعلقات عند العرب. وذلك أمر طبيعيّ فإن قرض الشعر ينطق به لسان البدويّ طبعا وترسله قريحته

عفوا ولا يقتضي منه رقيّا في المدارك وحُنكة في التجريدات الفلسفية لا يقوى عليها عقله."(عطا الله رشيد يوسف، 1985م، ص15).

وخلاصة القول أن اختلاف البيئة الجغرافية يؤدي إلى نشأة اللهجات، فاللغة كالشجرة تتدلى فروعها إلى أسفل فتلامس التربة وترسل في الأرض جذورا تصبح أشجارا فتيّة فيما بعد.(فريحة أنيس، د ت، ص75)

ب. الأسباب الاجتماعية: إن المجتمع الواحد يتفرع إلى طبقات كما قال الدكتور عبد الغفار حامد هلال: "والمجتمع الواحد قد يوجد فيه الطبقات الرستقراطية والدنيا أو الطبقات الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها من أرباب المهن المختلفة، وبقدر ما يوجد من تلك المظاهر تتفرع لغات المجتمعات وتختلف." (حامد عبد الغفار هلال،1998، ص33)

فالعوامل الاجتماعية لها دور أساسيّ في نشأة اللهجات، لأن المجتمع طبقات: طبقة غنية ومتوسطة وفقيرة؛ فالطبقة الغنية تنمق في كلامها وتنتقي ألفاظها لأنها تمثل أرقى الطبقات وبالتالي تحاول أن تبدو في أحسن الصور على جميع المستويات على خلاف الطبقتين المتوسطة والفقيرة اللتين تمتازان بالعفوية والبساطة لبساطة حياتهما، ولقد قال الدكتور عبد الواحد وافي: "تتأثر اللغة في تطورها وارتقائها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى أربع طوائف: ...(وثالثها) عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية، كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها، وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها، وبيئتها الجغرافية...وما إلى ذلك."(عليّ عبد الواحد وافي، 1998م، ص227).

وقال في هذا الصدد الدكتور عبده الراجحي: "إن المجتمع الإنساني بطبقاته المختلفة يؤثر في وجود اللهجات، فالطبقة الأرستقراطية مثلا تتخذ لهجة غير لهجة الطبقة الوسطى أو الطبقة الدنيا من المجتمع، ويلحق بذلك أيضا ما

نلحظه من اختلافات لهجية بين الطبقات المهنية، إذ تتهيأ لهجات تجارية وأخرى صناعية وثالثة زراعية وهكذا."(الراجحي عبده، 1998، ص38).

فالمجتمع الإنساني بطبقاته المختلفة يؤدي إلى الاختلاف اللهجي، باعتبار أن كل طبقة تتخذ لهجة تتماشى معها؛ وعليه فانتشار اللغة الواحدة في بيئات منعزلة يكون لهجات لا تلبث أن تستقل وتتميز بخصائص؛ وآخر ما نستشهد به الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي قال: "الأصل في تشعُّب اللغات تشعُّب الجماعات؛ فإن اللغة كما أسلفنا بنت الاجتماع"....(الرافعي، 1911م، ج1، ص65).

3. الاحتكاك والعلاقات:

إن جزيرة العرب في الشمال لم تكن موطنا للقبائل الشمالية فقط، فإن طبيعة الأرض تسمح بالهجرة المستمرة، والتداخل بين لهجات القبائل الصاعدة شمالا أو النازلة جنوبا، والمجاورة والاحتكاك كانتا عاملا آخر مهما في نقل خصائص لهجات جنوبية إلى قبائل شمالية.

والأدلة كثيرة تبرهنها اختلاف القراءات التي قال عنها الدكتور عبد العال سالم مكرم أساسها اللهجات أو اللغات التي نزل بها القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك:

أ. "قراءات بلغة هذيل: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾(سورة الحجر، الآية 14) قال أبو حيان: "قرأ الأعمش، وأبو حيوة: "يعرجون" بكسر الراء، وهي لغة هذيل."(مكرم عبد العال، 1996م، ص36)

ب. "قراءات وردت بلغة تميم ﴿الحمدُ لِلَّهِ﴾(سورة الفاتحة، الآية1) بكسر الدال بدلا من ضمها، بشهادة النحوي بلهجة تميم" (يوهان فك، 1951م، ص32). إن احتكاك اللغات بعضها ببعض أذى فيها فيما بعد إلى تداخل اللهجات فيما بينها وهذا الذي جسّدته القراءات القرآنية.

لقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن الإنسان اجتماعي بطبعه فلا يمكنه أن يعيش منعزلا عن أخيه الإنسان، ولهذا تجده لسبب أو لآخر يتصل بأخيه الإنسان سواء للرزق أو لسبب علمي أو ديني أو سياسي.

وقد قال الدكتور عبد الغفار حامد هلال: "الإنسان مدني بطبعه -كما يقول علماء الاجتماع- فهو في حاجة لمساعدة أخيه الإنسان، ولذلك فقد يتصل بنو البشر لتبادل المنافع، كما أن الإنسان قد يحتاج إلى الهجرة من وطنه الأصلي إلى مكان آخر بحثا عن القوت أو لأسباب أخرى دينية أو استعمارية."(حامد عبد الغفار، 1998م، ص34)

للتوضيح فالعرب لم يعيشوا في عزلة عن غيرهم بل هم قوم أكثروا من الاتصالات إمّا لغرض تجاري.

وقد عرف العرب بمهنة التجارة -وإمّا لغرض غزو أو سطو على القبائل العربيّة ومنه ظهر ما يسمى باللحن لاختلاط العرب بأمم مختلفة؛ وقد قال الدكتور عبد الغفار: "لم يعش العرب في عزلة عن غيرهم، أو عن اتصال بعضهم ببعض، فالحياة الاجتماعية تحتاج إلى صلات وروابط بين الأفراد والجماعات والشعوب، وقد تهيأت لهم وسائل هذا الاتصال عن طريق تبادل المنافع وعن طريق الغزو والسيطرة كما عرفنا، ولا ريب أن الإسلام -بعد الفتوح- محا ديانات الشعوب التي تغلب عليها واحتلت لغة العربية الصادرة لديها، وفي جميع الأعمال والشؤون والمخاطبات العادية."(حامد عبد الغفار، 1998م، ص37)

وتبدو آثار احتكاك اللغات بعضها ببعض في النتائج المترتبة عن احتكاك اللغة العربية في السنوات الماضية باللغات الأجنبية ونقصد بالفترة فترة القرن التاسع عشر حيث غزا المغرب العربي المستعمر الفرنسي، فبدت في لهجاته آثار جديدة تتمثل في ظواهر متعدّدة نذكر منها تداخل ألفاظ وتراكيب فرنسية في حديثهم(مادن سهام، 1996م، من ص 177 إلى ص186) وهذا الذي أشار إليه

ابن خلدون في مقدمته: "وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية للعجم، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويُرُّبون عليه يبعدون عن الملكة الأولى."(ابن خلدون، 2003م، ج1، ص1079)

وقد تعرّض إمام اللغة ابن جني إلى هذه القضية في قوله: "واعلم أن العرب مختلف أحوالها في تلقّي الواحد منها لغة غيره، فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه، ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته البتّة، ومنهم إذا طال تكر لغة غيره لصقت به، ووجدت في كلامه، ألا ترى إلى قول رسول الله (ص) وقد قيل، ما ينبئ الله، فقال: "ليست بنبئ الله ولكنني نبيّ الله" وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أنكر الهمز في اسمه فردّه على قائله، لأنه لم يدر بهم سمّاه فأشفق أن يُمْسِك على ذلك، وفيه شيء يتعلق بالشرع، فيكون بإمساك عنه مبيحَ محظورٍ أو حاظرَ مباحٍ"(ابن جني، 1952م، ج1، ص383)

وقد تطرق الدكتور عبد الغفار إلى قضية احتكاك اللغات -مرة أخرى- وما ترتب عنه وخصّص له جانبا مهما في مؤلفه عنونه بـ: تركب اللغات موزعا على الشكل التالي:

- التداخل في الأبنية. (أ. جانب الأبنية، ب. جانب الألفاظ).

وهذا ما قاله في تفسير التداخل في أبنية الأسماء: "عرفنا أن للعرب قواعد خاصة في اشتقاق الأوصاف من الأفعال، فمن الثلاثي المفتوح العين تأتي على فاعل، ومن المضموم العين تأتي على فعيل، وما جاء مخالفا لذلك عدّه الصرفيون شاذا، ولكن ابن جني يخرج بعضه على أنه من باب تداخل اللغات."(حامد عبد الغفار، 1998م، ص45)

وهذا ما قال ابن جني: "وكذلك القول فيمن قال: "شَعْر فهو شاعر، وحُمض فهو حامض، وخثُر فهو خاتر، إنما هي على نحوٍ من هذا، وذلك أنه يقال: خَثُر فهو خاثر، إنما هي عل نحوً من هذا،، وذلك أنه يقال: خَثُرَ وخَثَرَ، وحَمَضَ،

وشَعُرَ وشَعَر، وطَهُر وطَهُر وطهَر، فجاء شاعر، وحامض، وخاثر وطاهر على حَمض، وشَعَر، وخَثضر، ثم استُغني بفاعل عن "فعيل" وهو في أنفسهم وعلى بالً من تصوّرهم."(إبن جني، 1952م، ج1، ص383)

وهناك تداخل على مستوى الألفاظ أشار إليه الدكتور عبد الغفار حامد قائلا: ..."ومن ذلك ما يلاحظ من اجتماع لهجتين عند رجل واحد يورد لفظتين أو أكثر لمعنى واحد في لغته، وإذا كثرت على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسمعت في لغة إنسان واحد فإن أحرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كله، هذا في غالب الأمر، ومعنى ذلك أن الترادف ينشأ من اختلاف اللهجات واجتماعها ويمكن إدخاله تحت (تداخل اللغات)."(حامد عبد الغفار، 1998م، ص45)

فاللغة لا يمكن أن تعيش بمعزل عن المثيرات المختلفة بل هي في احتكاك دائم ببيئات مختلفة، وقد قال الدكتور عبده الراجحي: "وفي التاريخ شواهد كثيرة على أثر الصراع اللغوي، فاللهجات العربية التي انتشرت في البلاد الإسلامية بعد الفتح دليل عليه، ولهجاتها العامية الحالية فيها مظاهر كثيرة من آثار الاحتكاك اللغوي."(الراجحي عبده، 1998م، ص38)

وقد قال الدكتور إبراهيم أنيس: "واحتكاك اللغات الغازية ومعها لهجاتها المتباينة، باللغات المغزوة التي تشتمل على لهجات أيضا، يولد لنا أنواعا جديدة من اللهجات. فنحن حين نستعرض اللهجات العربية الحديثة، نراها قد اتخذت في مصر شكلا من الأشكال يباين ذلك الذي اتخذته في العراق أو الشام أو بلاد المغرب."(إبراهيم أنيس، 1996م، ص25)

ولقد أكدت كلّ الدراسات صلات العرب بغيرهم من الأمم سواء لغرض تجاري أو سياسي كما قال الدكتور حسن ضياء الدين عتر: "ولا شك أن العرب كانت لهم صلات وثيقة بالدول حولهم من أقدم العصور فكانت مملكة معين على

عظيم من القوة والثورة. وقد امتد نفوذهم بفضل نشاطهم التجاري إلى الخليج الفارسي، ولى أعالي بلاد الحجاز."(عترحسن ضياء الدّين، 1988م، ص18)

وقال أيضا: "إنّ هذه الأمة المنتشرة في الأصقاع المترامية في شبه جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق، رغم أنها كانت تتكلم لغة واحدة، فإنها بالاتصال مع غيرها من الأمم واقتباسها منها؛ وانفراد كل قبيلة عن بقية أمتها، جعلها مختلفة عن غيرها في النطق باللغة من وجوه حتى غدا لكل قبيلة منها لهجة خاصة." (عتر حسن ضياء الدّين، 1988م، ص20)

وكانت من أهمّ عوامل الاتصال أيضا الأسواق، وأشهرها سوق عكاظ الذي كانت تفد مختلف القبائل؛ ففي هذا السوق العظيم كان ينشد الشاعر قصائده، وكان يبدع الخطيب في خطبته، وقد تحدثت كتب الأدب العربي عن ذلك، نذكر منها ما قاله الدكتور مصطفى صادق الرافعي: "وهي أسواق كانوا يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض فكانوا ينزلون (دَوْمة الجَندل) أول يوم من شهر ربيع الأول، ثم ينتقلون إلى (هَجَر) بالبحرين فتقوم سوقهم بها في شهر ربيع الآخر، ثم يترحلون نحو (عُمان) في أرض البحرين أيضا فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى، ثم ينزلون سوق (المُشَقَر) وهو حصن بالبحرين فتقوم بها سوقهم به أول يوم من جمادى الآخرة، ثم ينزلون سوق (صَحَار)، فيقيمونها خمسة أيام عشر يمضين من رجب الفرد، وتقوم سوقهم (بالشَّحْر) وهو ساحل بين عُمَان وعَدَن في النصف من شعبان، ثم يرتحلون فينزلون (عدن أبين) وهي جزيرة في اليمن أقام بها (أبين) فنسبت إليه، ثم تقوم سوقهم في (حَضْرموت) نصف ذي القعدة، ومنهم من يجوزها وينزل (صنعاء) فتقوم أسواقهم بها."(الرافعي، 1911، ج1، ص95)

ولهم أسواق عديدة كـ: سوق مَجِنّة، وسوق حُباشة، وأشهر أسواقهم سوق عكاظ الذي وصفه الرافعي في قوله: "أما عكاظ فهي أعظم أسواقهم، اتخذت

سوقا بعد عام الفيل بخمس عشر سنة 540 للميلاد وعكاظ نخل في واد بين نخلة والطائف، فكانت تحضره قبائل العرب كلها، لأنها متوجّهم إلى الحج الأكبر، فيجتمعون منه في مكان يقال له الابتداء، فتقوم أسواقهم ويتناشدون ويتحاجّون، لأنه مشهد القبائل كلها؛ إذ كان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته، إلا عكاظ فإنهم يتوافون إليها من كل جهة...".(الرافعي، 1911، ج1، ص96)

فممّا لا شك فيه أن العرب في جاهليتهم كانت لهم أسواق عديدة تجمع بعضهم ببعض، وهذا الاتصال والتداخل أدّى إلى نشأة اللهجات، وقد تحدث الكاتب رشيد عطا الله في ذلك: "كان للعرب في جاهليتهم مواسم عامة تحضرها الوفود من جميع القبائل وهم يسمّونها أسواقا وكانوا يقيمونها في أزمة وأمكنة معينة يقصدها القوم لمصالحهم، فمن تلك الأسواق وأحفلها سوق عكاظ بين نخلة والطائف فكان يتقاطر إليها العرب من كل فجِّ وصوب ويُقيمون فيها نحو شهر يبيعون ويشترون ويأخذون ويعطون ويقضون مهماتهم وأمورهم ثم يأخذون في إلقاء الخطب وإنشاد القصائد فيتفاخرون ويتنافسون على مسمع من تلك الجماهير الغفرة..."(عطا الله رشيد يوسف، 1985، ص21)

تعتبر مكة من أقدم الدول العربية عراقة وأصالة، ولم تلبث هذه الأخيرة منعزلة عن غيرها من الشعوب أن أقامت علاقات تجارية مع دول أخرى كدولة اليمن-وهم أصحاب زراعة وتجارة على وجه العموم-، وهم ذووا حضارة عريقة كما وصفهم الأستاذ محمود نَخْلة في قوله: "كان اليمانيون أرباب زراعة وتجارة فأقاموا لأنفسهم حضارة عربية أصيلة، وقد بدا اتصالهم بعرب الشمال منذ وقت مبكر، إذ كانت قوافل هؤلاء التجارية تحمل تجارة اليمنيّين بما فيها من بضاعة يمنية وأجنبية عبر الأراضي الحجازية إلى الموانئ السورية، وكان اليمنيون يرونهم أبناء عمومة، ويرون بيتهم الحرام جديرا بالتقديس والاحترام، فلما ضعف نفوذ الحميريين وساءت أحوالهم التجارية والاقتصادية والعمرانية هاجر عدد كبير منهم

إلى الشمال، واستطاعوا أن يكونوا وحدات سياسية ةمن القبائل المهاجرة، وقد حمل هؤلاء معهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين فأثروا فيهم آثارا بعيدة."(نحلة محمود أحمد، 1981، ص 19)

تعتبر مكة مركزا مهما يستقطب أمما كثيرة، وتعتبر التجارة المهنة الأساسية للعرب؛ فقد كانت لمكة علاقات تجارية دولية كدولة اليمن العظمى التي تمثل حضارة عريقة؛ كما كانت لها علاقات تجارية مع دول أخرى كالحبشة؛ وقال في هذا الباب الكاتب نفسه: "كانت الحبشة تشترك مع عرب الجنوب في احتكار تجارة التوابل القديمة التي كان شريانها الأعظم يخترق شبه الجزيرة مارا بمكة، فلما قبض المكيون على ناصية التجارة خرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة، فأخذ من ملوكهم عهدا تجاريا كما فعل أخوه مع عرب الجنوب، ومنذ ذلك الحين توثقت الصلات التجارية بين الأحباش وأهل مكة، يحملون ما تنتجه الحبشة من توابل، وخمور، وعاج، وجلود، وريش نعام، بالإضافة إلى الأرقاء الذين كانت سوق خاصة تقام لهم بمكة."(نحلة محمود أحمد، 1981، ص21)

اختصت الحبشة بتجارة التوابل القديمة، وكان لمكة علاقات تجارية معها، ومع دول أخرى كالهند التي اشتهرت بتجارة أنواع من الطيب والأخشاب والأسلحة والسيوف خاصة كما قال الكاتب:

"كان للمكيين اتصال بالهند قبل الإسلام بزمن طويل، يأتيهم الهنود ببضائعهم التي تشمل أنواعا من الطيب والأخشاب والأسلحة، وبخاصة السيوف وكان للعرب شغف بسيوف الهند، فأطلقوا على واحدها (المهند) إشعارا بقيمته وجودته، واستملح العرب أن يسمون بناتهم (الهند) فشاع ذلك بينهم وكانت تجارة الهند تصل ل العرب من طريق البر والبحر، فما ورد منها بحرا تلقاه اليمنيون ليحمله المكيون معهم في رحلة الشتاء، حيث يتجهون به إلى الشام في رحلة الصيف."(نحلة محمود أحمد، 1981، ص24)

كما كان لمكة علاقات تجارية مع الفرس عن طريق عرب الحيرة في الشمال والقحطانيين في الجنوب، كما قال الكاتب: "اتصل المكيون بالفرس من جنوب وشمال، غير أن هذا الاتصال لم يكن مباشرا في حقيقة الأمر، وإنما كان عن طريق عرب الحيرة في الشمال والقحطانيين في الجنوب، ذلك بأن الفرس كانوا على اتصال مباشر بطريق التجارة الهندية، ومن ثم لم يكونوا في حاجة ماسة إلى وساطة العرب في نقل التجارة.

وكان الفرس قد أقاموا إمارة الحيرة في عهد سابور الأول (حوالي 240 ه) ولوا عليها عمرو بن عدي لتكون رِدْءًا لصد البدو على بلاد الفرس، فكان عرب الحيرة يحملون إلى عرب الحجاز عُروض التجارة الفارسية، ويبشرون بالفرس ومدنيّتهم. ولما تولى المكيون أمر التجارة توجه نوفل بن عبد مناف إلى فارس فعقد مع كسرى معاهدة تجارية مالتي عقدها أخواه في اليمن والحبشة."(نحلة محمود أحمد، 1981، ص33)

ولم تكف مكة بعقد علاقات تجارية مع اليمن والحبشة والهند وفارس، بل عقدت علاقات تجارية مع الشام ومصر، لكن علاقاتها بمصر كانت قليلة بالمقارنة مع غيرها من الأمم، وقد قال في هذا الشأن الأستاذ محمود أحمد نحلة: "ولكن ما نعرفه عن علاقة المكيين بمصر قبل الإسلام قليلا، ومن ذلك ما قيل من تقديس المصريين لبلاد الحجاز، وتسميتهم لها (البلاد المقدسة) وما يروونه من أن نفرا من بني مالك أجمعوا على الوفود إلى المقوقس، وأهدوا إليه هدايا، كما ذكروا أن عبد الله بن جُدْعَان ورد مصر ببضاعة فباعها، ثم رجع إلى عكاظ."(نحلة محمود أحمد، 1981،ص24)

ويبدو جليًّا أنّ اصال العرب بأمم أخرى قد أدّى إلى نشأة اللهجات، بدليل وجود ألفاظ فارسية وحبشية ويمنية وغيرها، نذكر منها الكلمات الآتية:

الصرح، الخيمة، الصومعة، المشكاة، المائدة، وهي ألفاظ حبشية كما قال الكاتب: "دخلت إلى العربية ألفاظ حبشية بعضها يتصل بالمسكن وأدواته مثل: الصرح والخيمة والصومعة، ومشكاة ومائدة، وصواع (نوع من الآنية)"...(نحلة محمود أحمد، 1981، ص24).

4.الأسباب الفردية:

لقد أتبتت الدراسات أن اللغة العربية وإن كانت واحدة لا يتكلمها شخصان بنفس الطريقة، واختلاف الأفراد في النطق يؤدي مع مرور الزمن إلى نشأة اللهجات؛ وقد قال فندريس عن اللغة: ..."كانت واحدة فهي متعددة بتعدد الأفراد الذين يتكلمونها، ومن المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفرق."(فندريس، 1950، ص29).

وقال الدكتور عبده الراجحي: "واختلاف الأفراد في النطق يؤدي مع مرور الزمن إلى تطوير اللهجة أو إلى نشأة لهجات أخرى...".(الراجحي عبده، 1998م، ص39).

وقد ضرب الكاتب عبده الراجحي مثالا بيّن من خلاله أن أخطاء الأطفال في المستقبل تصير عادات لهجية، وذلك في قوله: "ويمكن أن يلتحق بهذا أيضا ما يسمى (بخطأ الأطفال) في مؤنث (أحمر وأخضر)، فإذا عاش هؤلاء الأطفال في معزل عمن يقوم لهم ألسنتهم كأن يكون آباؤهم مشغولين في الغزو أو في طلب الرزق، أصبحت هذه الأخطاء بعد فترة من الزمن عادات لهجية..."(الراجحي عبده، 1998م، ص39).

فما لم يصحّح في وقته، صار مع مرور الزمن لهجة من اللهجات، وأكدّت دراسات عديدة ذلك كما قال الدكتور عبده الراجحي: "ومن الأسباب المعروفة في تطور اللغات ما يقرره اللغويون من نشأة (أخطاء) لغوية تظل دون تصحيح

لظروف معينة، إلى أن تصبح مستوى لغويا مقررا بعد ذلك..".(الراجحي عبده، 1998م،ص40).

فالفرد الواحد يمكن أن يؤثر في جماعة، وبقاء اللغة دون تأثير أمر مستحيل أثبتته الدراسات المختلفة؛ فهذا فندريس يقول: "وجود اللغة في معزل عن كل تأثير خارجي يعدّ أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق في أية لغة".(فندريس، 1950، ص348).

بل وإن الإنسان نفسه لا يمكنه أن يلتزم لهجة واحدة كما بيّنته الدراسات اللغوية الحديثة أيضا، كما قال Christian Baylan :لكل متكلّم تأدية خاصة في الخطاب(baylan christian,1984,p57)..."

وخلاصة القول أن اللغة تتفرع لا محالة إلى لهجات، كما أكدّته كلّ الدراسات اللغوية القديمة والحديثة؛ وحتى في الدراسات الاجتماعية، وفي هذا الصدد نستشهد بعلماء الاجتماع اللغوي أمثال:

William labovو Christian Baylanو.J.B. Marcelles

1. لا يمكننا على أية حال عزل اللغة عن المحيط الاجتماعي الذي تنشأ فيه لأنها كائن اجتماعي.

2.يختلف المتكلمون في تأديتهم اللغويّة، بل إننا قد نجد أن المتكلّم نفسه قد ينتقل من مستوى لآخر في خطاب واحد.

3.تختلف الكيفيات الأدائية من جنس لآخر، أي من النساء إلى الرجال حتى وإن كانا ينتميان لنفس الطبقة(baylan christian,1984,p75) .

خاتمة:

إنّ نشأة اللهجات العربيّة القديمة وليدة أسباب عديدة ذكرناها حتّى نفهم أنّ اللغة كائن حيّ ينمو ويتطوّر ويخضع لظروف متعدّدة.

قائمة المراجع:

1. ابن جني(1952)، الخصائص، المكتبة العلمية، القاهرة.
2. الجاحظ(د ت)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، لبنان.
3. هلال عبد الغفار حامد(1998)، الفكر العربي، القاهرة.
4. السيّوطي جلال الدّين(د ت)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الجيل، بيروت.
5. إبراهيم أنيس(1996)، في اللهجات العربيّة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
6. الراجحي عبده(1998)، اللهجات العربيّة في القراءات القرآنية، المعرفة الجامعية.
7. فندريس(1950)، اللغة، تعريب الأستاذين عبد الحميد الدواخلي ومحمّد القصاص، لجنة البيان العربي.
8. داود سلّم(1986م)، دراسة اللهجات العربيّة القديمة، عالم الكتب، النهضة العربيّة.
9. عائشة بنت الشاطئ(1969م)، لغتنا والحياة.
10. فرّوخ عمر(1970م)، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأمويّة، العلم للملايين، بيروت، لبنان.
11. عطا الله رشيد يوسف(1985م)، تاريخ الآداب العربيّة، تحقيق. عليّ نجيب عطوي، مؤسسة عز الدّين، بيروت، لبنان.
12. فريحة أنيس(د ت)، نحو عربيّة ميسرة، بيروت، لبنان.
13. عليّ عبد الواحد وافي(1962م)، علم اللغة، مطبعة السلفية.
14. الرافعي مصطفى صادق (1911)، تاريخ آداب العرب، الأخبار.

15. مكرم عبد العال سالم (1996)، القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية، الرسالة، بيروت.

16. يوهان فك (1951م)، العربية، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة.

17. مادن سهام (1996) بين العامية والفصحى، دراسة مقارنة لتراكيب اللغة العربية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر1.

18. ابن خلدون (2003)، المقدمة، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، بيروت، لبنان.

19. عتر حسن ضياء الدّين(1988)، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها، البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان.

20. نحلة محمود أحمد (1981)، لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، بيروت، لبنان.

.21 Baylan christian fabre paul(1984),sémantique avec des travaux pratiques d'application et leurs corrigés , collection nathan, france.